

ومما لاشك فيه أن نظرة التحليل النفسى برغم ما قيل عليها قد أحدثت تأثيراً لا يستهان به على دراسات النمو وخاصة تلك التى تختص بعلاقة الالتصاق بالأم والدور الاجتماعى القائم على نوع الجنس وتفسيرات التقمص لدى الأطفال وطرق تربية الأطفال وتوجيههم الاتجاه السوى وتتبع أساس اضطرابات النمو بصفة عامة .

النمو اللغوى

الإنسان حيوان ناطق :

يواجه الوليد البشرى تحدياً كبيراً بعد ولادته فى كيفية توصيل طلبات لمن حوله والتعبير عما يجول بنفسه من رغبات وتبدأ مواجهة هذا التحدى باستخدام الصراخ ولكن لا يستمر ذلك طويلاً فتتحول هذه الطريقة إلى نظام لغوى معقد يتركب من رموز وأصوات ليس لها صلة ملموسة بما تعبر عنه ولا بد وأن يكون لدينا قدرة معينة تمكننا من هذا التحول وهذه القدرة كامنة من نظامنا الفكرى وقادرة على أن تؤدى بنا إلى اكتساب اللغة ولا شك فى أن هذه القدرة الفكرية هى ما تميزنا عن باقى المخلوقات حتى أن المفكرين الباحثين الذين يدعون القدرة على تعليم بعض الحيوانات العليا القريبة من البشرىات مثل الشمبانزى والغوريلا على اكتساب اللغة لم يتوصلوا إلى تعليم هذه الحيوانات على فهم واستخدام التركيبات اللغوية والقواعد التى تحكم تداول هذه الرموز واستخدامها لنقل أفكار معقدة أو مجردة أو التعبير عن مفاهيم معينة أو فهم استخدامات حديثة دون سابق خبرة بها .

ولقد كانت هذه القدرة وما زالت محل بحث واستقصاء منذ الأيام الأولى للفكر البشرى وقد أدت هذه البحوث والاستقصاءات إلى إثارة جوانب جديدة للمشكلة قبل أن تؤدى إلى التوصل إلى حلول للأسئلة

التي أثبتت من قبل وقد حمل لواء هذه البحوث الفلاسفة بادئ ذي بدء ثم انتقل اللواء إلى علماء النفس الذين استخدموا نظريات التعليم المختلفة للتوصل إلى تفسيرات لم تصادف هوى العلماء اللغويين فظهرت طائفة جمعت بين مبادئ علم النفس والمبادئ اللغوية الذين استخدموا محورين في دراسهم محور علم النفس والنمو المعرفي ومحور اللغة وقواعدها الأساسية من نحو وصرف وبلاغة باعتبارها مهارة ذات جوانب وأبعاد متعددة واستعانوا في دراسهم بعلماء نفس الأعصاب Neuro pschologists ليتوصلوا إلى فهم أكبر للعمليات العصبية والتركيبات التشريحية التي تحكم هذه القدرات . وأصبح النمو اللغوي ميداناً كبيراً الأبحاث المختلفة التي تحاول إلقاء ضوء أكثر على جانب معين داخل الإطار المتكامل للقدرة اللغوية . وهذه الجوانب عديدة منها :

العلاقة بين اللغة والتبليغ ، العوامل الفطرية التي تهىء الطفل لفهم وتعلم وإنتاج اللغة البشرية ، تأثير العوامل البيئية والوراثية على اكتساب اللغة ، العلاقة أو الاختلاف بين القدرة اللغوية والآداء اللغوي ، العلاقة بين الفكر واللغة ، الاستراتيجيات التي تتبع في فهم لغة واحدة أو لغات متعددة .

اللغة والتبليغ :

يجب علينا أن نعرف أن اللغة تختلف عن التبليغ فهي نمط من أنماطه وهو وظيفة من وظائفها . وقد حظيت اللغة بمحاولات عديدة لتعريفها وتحديدتها ومجال البحث هنا هو اللغة كنظام للكلام فهي نظام له قواعده وكلام ذو عناصر من علامات وإشارات ورموز أما قواعد هذا النظام فهي التي تحدد العلاقات المختلفة بين عناصر الكلام ومدلولاتها والعلاقات بين هذه العناصر بعضها البعض والأسس التي تحكم حياتها

وتوالدها وموتها . وبالنسبة لعناصر اللغة فهى طريقة إخراجها على هيئة علامات جامدة أو إشارات اصطلاحية أو رموز على هيئة كلمات لا علاقة بينها وبين مدلولاتها . وهناك اختلاف بين القسدرة اللغوية والقدرة التبليغية فليس كل ما ننطق به نقصد به التبليغ أو نقدر به على التبليغ .

العوامل البيولوجية لاكتساب اللغة :

مما لا شك فيه أن هناك تركيبات بيولوجية لدى الإنسان تجعله قادراً على إصدار الأصوات وتحويرها لتكوين كلمات أو جمل مفيدة ليست موجودة عند الحيوان ورغم أن التشريح المقارن للإنسان والحيوان للجهاز الصوتى قد أعطى دليلاً على هذا الاختلاف إلا أنه لا يشكل السبب الأساسى لقدرتنا على إصدار هذه الأصوات بقدر ما نعزبه إلى الاختلاف فى التشريح العصبى فالخ البشرى يختلف عن المخ الحيوانى فى تركيبه والعلاقات بين أجزائه .

وقد أدى التوصل إلى أسس بيولوجية للكلام إلى دراسات للعلاقة بين النمو اللغوى والنضج الفسيولوجى وإن كانت هذه الدراسات لم تؤكد علاقة سببية فقد أشارت إلى وجود علاقة ارتباطية بين النمو الحركى والنمو اللغوى (لينبرج ١٩٦٦ 1966 Lenneberg) ومما ينفى هذه العلاقة السببية ويؤكد العلاقة الارتباطية إشارته بأن الطفل فى مرحلة المناغاة يصدر أصوات مشابهة لأصوات اللغة ومن ثم فهو فسيولوجياً قادر على إصدار اللغة ولكنه ما زال غير قادر على التحدث بها .

العمر	النمو الحركي	النمو اللغوي
١٢ أسبوع	يرفع رأسه عند النوم على بطنه	يبتسم للحديث ويصدر صوت القرقرة
١٦ أسبوع » ٢٠	يلعب بالشخشيخة إذا ما أمسكها يجلس مع مستند	يلتفت حين الحديث وتجاهه يصدر أصوات مشابهة لحروف الهجاء
٦ شهر	يمد يده ليأخذ شيئاً	مناغاة تشبه المقاطع
٨ ش	يقف مستنداً أو يلتقط بإيها موهو سبابته	يردد بعض المقاطع
١٠ ش	يزحف ويمشي مستنداً يميناً أو يساراً	يميز بعض كلمات الكبار
١٢ ش	يمشي بمساعدة ويجلس منفرداً	يفهم بعض الكلمات ويقول (بابا . ماما)
١٨ ش	يمسك ويصعد السلم زاحفاً	من ٣ إلى ٥ كلمة مفردة ظهور الكلمتين
٢٤ ش	يجرى ويصعد السلم دون زحف	عبارات تحتوي على ثلاثة كلمات أو خمسة مع زيادة في المفردات اللغوية .
٣٠ ش	يقف على رجل واحد لمدة ثانيتين ويمشي على أطراف الأصابع	نطق واضح حوالي ١٠٠٠ كلمة
٣ سنة	يستطيع أن يركب دراجة ذات ثلاث عجلات	لغة واضحة
٤ سن	ينط الحبل	

وقد تؤثر البيئة على عدد المفردات كما أن العاهات التي قد يصاب بها الطفل من عمى أو صم أو بكم أو تخلف عقلي لا تؤثر على تسلسل هذه المراحل بقدر ما تؤثر على الكم اللغوي . وقد أشار لينبرج إلى المراحل الحرجة في النمو وتأثير ذلك على اضطرابات اللغة فمن المعروف أنه في الأحوال العادية يكون مركز اللغة في النصف المخي الأيسر وقبل أن يحدث تحديد وظائف أى من النصفين أى ما بين الثانية والرابعة إذا ما حدث أى خلل في النصف

الذى يحتوى على القدرة الكلامية فإن النصف الآخر يتولى التعويض ويقوم هو بتبني هذه القدرة أما إذا حدث خلل بعد سن الثامنة عشرة بعد أن يتم نضج المح وانفصال النصفين التخصصيين من الصعب أن يتم هذا التعويض . كما أن الأطفال فى سن ما قبل الثالثة عشرة يستطيعون تعلم لغتين أو أكثر بسهولة تفوق قدرة الكبار منهم أو البالغين (Eassa 1978) .

ثم نعود إلى ما بدأنا به هذا الجزء وهو أننا نمتاز عن الحيوانات بتركيبات بيولوجية بل وأكثر من ذلك بتركيبات عصبية تجعل النعمة الإلهية قاصرة على الإنسان من دون غيره من المخلوقات ولكننا كثيراً ما نسمع عن لغة الحيوان وتعليم الشمبانزى لغته الأشارات الأمريكية (A S L) ولكي يتضح لنا الأمر يجب أن نذكر أن أساس هذه المجادلة هو تعريف اللغة ذاتها ولقد حاول العلماء تفسير هذا المصطلح وتحديدته ونذكر هنا أربعة فقط من خصائص اللغة البشرية توضح لنا أن المحاولة التى سبق ذكرها لا أساس لها .

١ - عدم التقيد بالزمان والمكان فاللغة البشرية لديها القدرة على التعبير عن أحداث بعيدة عن زمان ومكان الحديث .

٢ - الإنتاجية: وتلك قدرة جمع مفردات اللغة فى تركيبات لغوية جديدة يفهم المستمع ولو أن خبرته بها حديثة أو لأول مرة .

٣ - عنصر الوارثة ويتضح ذلك فى القدرة على تعلم اللغة قد تكون وراثية رغم الاتفاق بأن مفرداتها مكتسبة .

٤ - الأزواجية الوظيفية للكلمات والحروف فكثير من الحروف لها دلالة بنائية ودلالة معنى أيضا .

وإذا ما طبقنا هذه المعايير على تجربة بريماك Premack الشهيرة مع الشمبانزى واشو Washoe الذى علمه بعض مفردات لغة الإشارة الأمريكية وساره Sarah التى علمها كيف تجمع قطعاً من البلاستيك ترمز لكلمات

معينة في جمل - فإننا نرى أن هذه القروود : أولا . قد تعلمت ارتباطات شرطية على أساس من الاشرط الإجرائي مبينة على التعزيز (تقديم الطعام) وثانيا : أن تعبيراتها خالية من التركيبات التعريفية النحوية ولكن مجرد تقليد ببغاوى للنماذج . وثالثا : أن تعبيراتها قد تقيدت بالزمان والمكان واحتياجاتها الوقتية مثل الطعام والشراب ورابعا أن قدرتها على التمييز بين شئ مساو أو مختلف محدودة فأنها فشلت في ادراك العلاقات ودرجاتها داخل جداول التصنيف للإرشاد . وإذا ما أضفنا هذه النتائج الأربعة للاخصائص السابق ذكرها فإننا نجد أن اللغة التي تعلمتها القروود لا تتفق مع مواصفات لغة الانسان .

نتنقل بعد ذلك للتحدث عن جذور هذه القدرة لدى الأطفال قبل ظهورها كما نعرفها نحن أى مرحلة ما قبل اللغة كمحاولة التقصى للعوامل الفطرية وراء هذه القدرة . وهذه المرحلة تبدأ بعد الولادة بصرخة الميلاد ولكن قبل أن نتحدث عن إصدار الأصوات نتحدث عن إدراك الأصوات .

إدراك الأصوات :

اتفقنا على أن الطفل يدخل هذا العالم بمجهز صوتى وإدراكى غير قادر على إصدار الأصوات ولكن مجهز من الناحية الحينية لاكتساب هذه القدرة باكتمال نضج الجهاز العصبي . ولكن إدراك الأصوات الذى يظهر على هيئة توقف المص أو دقات القلب المتغيرة أثبتت قدرة الوليد على ذلك بل وقدرته على التمييز بين الأصوات مع الشهر الثانى أو الثالث .

إصدار الأصوات :

أول صوت يخرجهُ الطفل هي صرخة الميلاد ثم يتبعها صراخ يتحول بعد شهر إلى قرقرة تتميز بمرور الشهر إلى مناغاة تشمل حروفاً مشكلة على هيئة لعب صوتى وهذه الحروف هي أبجدية كل اللغات تقريباً .

ثم تتحدد هذه الأصوات وتقتصر على أصوات اللغة الأم ويعزو علماء التعلّم هذا إلى التعزيز من ناحية الأم أو الأب ولكن من المعروف أن تجميع الأصوات في أول كلمات مفهومه بابا ، ماما في بدايته لا يشير إلى الوالدين بل أن الأطفال الذين ولدوا فاقدى البصر وفقدوا معه كل إلتقاء بصري مع من وما يحيط بهم قد تطورا في نموهم اللغوي - وإصدار الأصوات على نفس النمط مما يثير تساؤلات عديدة وينقلنا إلى محاولة الوصول إلى الميكانيزمات الفطرية لدى الكائن البشرى دون أن تأخذنا كلية إلى هذا الإتجاه وهكذا نجد أنفسنا وسط نظريات متصارعة حول فطرية اللغة أو إكتسابها أو الجمع بين تلك وتلك .

النظريات الأساسية لاكتساب اللغة :

إن اختيارنا لبعض النظريات الأساسية لاكتساب اللغة لايعنى بأى حال من الأحوال أن داخل كل نظرية من هذه النظريات لا يوجد وجهات نظر متفاضلة أو متكاملة قد ترقى إلى مستوى النظريات المستقلة وإنما نعنى بهذه النظريات الأساسية الإطار العام الذى يعد بمثابة صيغة فكرية لاتجاهات أتباع هذه النظرية أو تلك وهذه النظريات الأساسية هي :

- ١ - نظرية التعلّم التى وضع مواصفاتها الأساسية سكينر B. Skinner فى مفاهيم التعلّم الإجرائى .
- ٢ - النظرية اللغوية وهى التى استنبطها أساسا تشومسكى N. Chomsky
- ٣ - النظرية المعرفية التى ترتبط بأعمال بياجيه . وهذه النظريات قد تختلف فيما بينها عند تفسيرها للمسليات الأساسية للنمو اللغوي وأثر الوراثة والبيئة فى هذا النمو .

أولا : نظرية التعلّم :

يعتبر سكينر Skinner بحق أبو النظرية الاشرطية الإجرائية وقد استخدمها

في تفسيره لاكتساب اللغة ويعتبر سكينر مثل كل السلوكيين - اللغة فصلا من فصول التعلم وأن كافة أنماط التعلم بما فيها اللغة يمكن أن تخضع للتفسير الذي يضعه التعلم الإجرائي من أن الاستجابات الإجرائية التي يليها تعزيز تستمر وتلك التي لا يليها تعزيز تتلاشى وهذا التعزيز مصدره الذين يحيطون بالطفل ويأتي على شكل إبتسامات وضحكات وأصوات التشجيع والأحضان. وهذه الأنماط المختلفة من التعزيز الإيجابي تزيد من احتمال ظهور تلك الأصوات التي تتدرج إلى لغة مفهومة وتقل من احتمال ظهور تلك الأصوات التي لاتأتي في مصفوفة الأصوات الداخلة في تركيب اللغة . فالطفل يولد ولديه مجموعة من الاستجابات الإجرائية وتشكل بعض الأصوات جزءا من هذه الاستجابات وعند صدورها على أشكال تقارب اللغة التي يتحدثها الأبوان يتم تعزيزها وكلما نما الطفل يلاحظ نوعية الأصوات والجمل التي ينطقها الكبار فيبدأ في تقليدها ويستمر وهم في تعزيزها إما عن طريق الإثابة الفورية أو الاستجابة لما تتضمنه بينما تتلاشى تلك الاستجابات التي لا تصادف مثل هذا التعزيز والتي في أساسها تعتبر مهمات غير مفهومة للأبوين .

تلك هي نظرة عامة لما يراه سكينر فاللغة مهارة مثل كل المهارات تخضع للمبادئ العامة للتعليم التعزيز - التقليد . الإضافة الكمية وقد سيطرت هذه الأفكار على الدراسات المختلفة للنمو اللغوي .

كما تجانست مع الأيديولوجية السائدة وقت ظهورها من اعتبار الفرق الكلي في نتائج اختبارات الذكاء مؤشرا للعمر العقلي أو مؤشراً للمستوى التحصيلي كما أنصبت معظم دراسات النمو اللغوي على حصيلة المفردات اللغوية وليست نوعيتها فوجد ماكارثي (1954) Mc Carthy تخصص عشرة صفحات في واحد من أشهر كتب دراسة الأطفال :

Carmichael's Manual of Child Psychology لتتبع دراسات النمو

اللغوي عند الأطفال التي تعتمد على حصر الزيادة الكمية وموعد ظهورها

وأثر البيئة عليها كما أصبح اختبار الذكاء اللغوى ينصب أساساً على عدد الكلمات التى يعرفها الطفل فالذى يعرف عدداً أكبر هو أذكى وأشطر . كما اهتمت طرق التدريس للغات بتعليم الأطفال وتحفيظهم كلمات أكثر مستخدمة فى ذلك التقليد والتعزيز دون النظر إلى نوعيات هذه المفردات . وقد وجهت انتقادات كثيرة لهذه النظرية فى شكل رفض للأسس التى استندت إليها فى تفسيرها للنمو اللغوى فالتعزيز مثلاً لا يمكن أن يكون هو الأساس فصراخ الطفل يتلاشى ليحل محله الكلام المفهوم رغم ما يصادفه من تعزيز ومن ناحية التقليد المبني على الملاحظة فهناك تركيبات لغوية كثيرة لم يمر بها الفرد من قبل ولكنها تقع فى دائرة فهمه كما أن دراسات كثيرة أثبتت أن الوالدين يقلدون أطفالهم أكثر من يقلدهما الأطفال كما أن الأطفال كثيراً ما ينطقون ألفاظاً ليست بصحيحة من الناحية اللغوية ولكنها تصادف استجابات معززة كما أن هذه الألفاظ لم يستخدمها الكبار أمامهم من قبل وبالإضافة إلى ذلك فإن مثيراً واحداً على هيئة كلمة معينة قد يكون له استجابات عديدة طبقاً لوضعه فى جملة معينة أى أن معنى الجملة لا يمكن أن يكون حصيلة معانى الكلمات المفردة فيها .

وهكذا نرى أن مبادئ التعليم التى أوردتها سكينز رغم أنه لا يمكن رفضها من أساسها كتفسير لاكتساب اللغة فإننا لا يمكننا قبولها باعتبارها أساساً للتفسير الكامل لهذا الأمر .

النظرية اللغوية :

بدأ تشومسكى ما يسمى بالثورة اللغوية ١٩٥٧ عندما وجه نقده لنظرية سكينز وانتقل بالكرة من ملعب البيثيين السلوكيين إلى ملعب الوراثة الذين يرون أن التركيب البيولوجى للإنسان يحمل بين طياته كل القدرات وأن تأثير البيئة يقتصر على إظهار هذه القدرات فقط . . .

وقد نادى بأن الأطفال يولدون معهم صيغاً لتركيبات اللغة فى

تركيبهم البيولوجي يجعلهم قادرين على تحديد التركيبات المناسبة لأي لغة يتعرضون لها أي أن الطفل لديه ما يسمى بالأساس العالمي الشامل للغة بغض النظر عن شكلها إنجليزية كانت أم عربية فالتركيبات الأساسية للغات جميعا واحدة فمثلا أي جملة تتكون من اسم وفعل ولكن ماختلف منه اللغة هو المظهر الخارجي فقط ومن هنا ظهر مفهوم عالميات اللغة Linguistic Universals كما ظهر مفهوم النحو التوليدي Generative Grammar باعتباره نظاما من القواعد التي تحول جملة بسيطة إلى أشكال مختلفة تتساوى جميعا في تركيبها العميق الذي يصور المعنى المراد نقله في أبسط صورة وهكذا نبتت فكرة التركيب السطحي Surface Structure والتركيب العميق Deep Structure فالتركيب العميق يظهر على هيئة تركيب سطحي بعد استخدام القدرات النحوية والنظام القواعدي الذي يشكل الكفاءة اللغوية والتي يجب أن نفرصها عن الأداء كما نراه في الصيغة الخارجية للغة . فبينما تكون الكفاءة Competence مثالية بعيدة عن الخطأ يكون الأداء Performance معرضا لطغوات اللسان وهناك الأخطاء اللغوية التي تقل كلما كبر الإنسان ونضجت قدرته على إستخدام القدرة الفطرية التي ولد بها أو الماكينة التي تم برمجتها قبل أن يولد (LAD) Language Acquisition Device وقد وجهت عدة انتقادات لهذه النظرية مما جعل اتباع المدرسة السلوكية يترددون في ترك نظريتهم من أجلها ولكننا لا نستطيع أن نغفل أثر ظهور هذه المدرسة في ظهور مناحي عدة داخل المدرسة السلوكية وتعديلات وتفسيرات لتطويع مظاهر النمو اللغوي لمبادئ هذه المدرسة . ومن هذه الانتقادات أن النظرية اللغوية قد ركزت على الجانب التركيبي للغة في شكله الخام أي أن الجملة تتكون من اسم وفعل وأغفلت ما يمكن أن يكون ذلك الاسم من مستند أو مسند إليه أو فاعل أو مفعول به أو علاقة المعنى بالتركيب فسلامة المعنى تعتمد على سلامة التركيب ولكن سلامة التركيب في رأيهم لا تعتمد على سلامة المعنى بقدر ما تعتمد على سلامة القواعد النحوية العامة التي تحكم

تركيب الجملة . وكمثال للعلاقة بين سلامة التركيب وسلامة المعنى فإن جملة (أكل الفأر القط) سليمة من الناحية التركيبية من فاعل وفعل ومفعول به ولكن معناها لا يستقيم ومن ثم فهي تفتقر إلى سلامة المعنى . أما من ناحية القدرة التي تمت برمجتها قبل الميلاد فإن ذلك يعنى أن محتوياتها قد تحددت . وأن هذه القدرة ثابتة وهذا قد لا يتفق مع مفهوم النمو للكائن الحي والنقد الآخر يتصل بعالميات اللغة فقد فشل أتباع تشومسكى في التوصل إلى تركيبات لغوية علمية شاملة وكل الذى توصلوا إليه هو مجموعة بسيطة من الأشكال النحوية وهم الذين نادوا بأنها وافرة . ومن هنا ظهرت الفكرة بأن عالميات اللغة لا تكن فى اللغة ذاتها وإنما فى القدرة البشرية على تعلمها وفهمها وإصدارها فليس هناك قواعد لغوية نظرية وإنما هناك قدرة على تعلم اللغة يولد الإنسان بها ويكتسب باستخدامها من تفاعله مع البيئة اللغوية التي يتعدها .

النظرية المعرفية Cognitive Theory

ارتبطت هذه النظرية ببياجية Piaget ويشار إليها دائماً باسم النظرية المعرفية النمائية Cognitive Developmental Theory على أساس أنها تضع مظاهر النمو البشرى مرتبطة بالنمو الفكرى فى مراحل تطورية نمائية . ومن هنا نجد أن النمو اللغوى ينبع أساساً من النمو الفكرى السابق له . وبما أن النمو الفكرى نتاج التفاعل بين الفرد والبيئة فإن النمو اللغوى يسير على نفس النهج . فاللغة عند بياجيه تتأثر فى نموها بمستوى التركيبات المنطقية اللغوية . وهذه التركيبات هى التى تعتبر مؤشرات لقدرة الطفل على ترجمة الواقع إلى قضايا رمزية ثم معالجة هذه القضايا الرمزية وقد قسم بياجية مراحل النمو الفكرى إلى أربعة مراحل أساسية : مرحلة التفكير الحساس حركى (من الميلاد حتى الثانية) ، مرحلة ما قبل العمليات الفكرية (من الثانية إلى السابعة) ، مرحلة العمليات العيانية (من السابعة إلى الحادية عشرة)

مرحلة العمليات الفكرية الغبارية أو الشكلية (من الحادية عشرة حتى الخامسة عشرة وما بعدها) ونمو الطفل الفكرى عبر هذه المراحل الذى يحدد الخطوات الرئيسية للنمو اللغوى ومن ثم فإن اللغة وظيفة من وظائف التفكير وباختصار فإن الطفل لا يتوقع منه أن يفهم تركيبا لغويا معيناً دون أن يصل بمقدرته الفكرية إلى التركيبات المعرفية اللازمة لذلك من ناحية ومن ناحية أخرى لا بد وأن تكون له دراية بالرموز المستخدمة والقواعد التى تنظم هذه الرموز فى تركيبات لغوية سليمة .

وهكذا نجد ثلاثة نقاط رئيسية لا بد من تضمينها فى أى تفسير للنمو اللغوى أولها أن هناك متطلبات وأوليات لا بد من تكونها فى التركيب المعرفى قبل ظهور اللغة فى مستوياتها المختلفة وثانيها أن اللغة تظهر فى مراحل منسلخة من بعضها فى اتجاه واحد كل مرحلة تعتمد فى ظهورها على ظهور مرحلة أكثر تطوراً فى النمو المعرفى وثالثها أن أى نظرية لاكتساب اللغة لا يمكن أن تغفل تعقيدات النظام الرمزى المتضمن فى اللغة ذاتها وعلاقة هذه التعقيدات بالتعقيدات الواردة فى التركيب المعرفى . وظهور التعبيرات اللغوية ما هو إلا نتيجة للتفاعل بين النمو المعرفى والتغيرات اللغوية الواردة فى اللغة ذاتها . ففهم التركيبات اللغوية الأكثر تعقيدا لا يتأتى إلا بعد الوصول إلى مرحلة فكرية معينة بل أن تركيب الجملة السليم يعتمد على القدرة على التصنيف والتسلسل وتلك قدرات لا تتأتى إلا فى مرحلة تالية للمرحلة الأولى من النمو المعرفى فروئتنا للنمو اللغوى لا تأتى منفصلة عن النمو المعرفى . قد يبدو من البيان السابق أن النظرية اللغوية والنظرية المعرفية على تناقض مع النظرية السلوكية . ولكن ذلك لا يعنى أن بياجيه وتشومسكى يقفان فى معسكر واحد ضد سكينر وإنما يعنى أن هناك اختلاف فى المسلمات الأساسية بين الثلاثة ولكن الخلاف بين بياجيه وتشومسكى يبدو فى مجالات أضيقت من تلك التى تبدو بين سكينر وتشومسكى مثلاً فالأساس للنمو اللغوى عند سكينر هو أن اللغة تكتسب عن طريق التقليد والتعزيز

ونطلق كلمات أو جمل في مجالاتها الموقفية وذلك ما يرفضه كل من بياجيه وتشومسكى اللذان يريا أن عملية اكتساب اللغة قدرة ابتكارية ويفصلابين الكفاءة والآداء ولكن بياجيه يرى أن الأداء قد يفوق الكفاءة في بعض الأحيان عندما تظهر تركيبات معقدة عفوية بينما يرى تشومسكى قصور الأداء عن التعبير عن الكفاءة ولكن كليهما ينادى بوجود القواعد النحوية الداخلية كجزء من القدرة على اكتساب اللغة ولكن أصول هذه القواعد وتعريفها لا يتفق فيهما إلاثنان فيذنا يرى أتباع تشومسكى أن العلاقة هي بين إشارات اللغة (الكلمات) يرى بياجيه أن علاقة بين الرموز وما ترمز إليه هذه الإشارات .

ويؤكد اتباع بياجيه على مرحلة ما قبل اللغة أى الحاسى حركية باعتبارها أساسا لا يمكن إغفاله بينما يغفل اتباع تشومسكى هذه المرحلة كما يختلف الإثنان في نظرتهما للغة ذاتها فيرى اتباع بياجيه أنها وسيلة أكثر منها غاية ويرى اتباع تشومسكى أنها غاية أكثر منها وسيلة .

النمو اللغوى لدى الأطفال :

مهما كانت النظرية التى يتبعها الإنسان فى رؤيته لاكتساب اللغة فالشئى الذى لا يمكن الاختلاف فيه هو أن مرحلة جديدة من عمر الطفل تبدأ على نهاية العام الأول عندما تتحول الأصوات الغير مفهومة من الكبار على الأقل إلى كلمات . وبهذه البداية يمكن أن تدرس هذه الأصوات أو الكلمات فى شكلها ومحتوياتها وتطورها حتى تصل القدرة اللغوية إلى حد الكفاءة المعترف بها .

الفهم أولا :

كلنا نلاحظ أن الأطفال يدركون معانى الألفاظ مع بداية شهرهم الثالث تقريبا ويتطور فهمهم لنغمات الحديث كما يدركون العلاقة بين

ما يقوله لهم الآباء والأمهات قرين الأشياء والأصوات الملازمة لها . فقد يكون الطفل ما زال في شهره الخامس ويستجيب بطريقة صحيحة لأمر أو سؤال من أمه أو أبيه مثل « تعال » أو فين عينه وذلك قبل أن يستطيع النطق بأى منها بمدة طويلة وذلك يعنى أن الفهم يأتى أولاً ويليه بعد شهرين قد تزيد على السنة الإنتاج الأول للكلمات ولعل هذا الأمر يلقى بقضية تحتاج إلى تفسير من السلوكيين الذين يربطون بين وجود المثير وظهور الاستجابة الفورية ولكن لا يخفى علينا أن الطفل في هذا العمر لم يكتمل لديه النضج العصبي بعد .

الكلمة الأولى :

قبل أن نتحدث عن ظهور الكلمات الأولى عند الأطفال يجب أن نضع في اعتبارنا أن هذه الكلمة الوحيدة في معناها تقف مكان الجملة كلها في معناها ومن هنا يلزمنا أن ندرك كيف يستطيع الطفل أن يلحق بهذه الكلمة كل هذه المعاني من ناحية ومن ناحية أخرى كيف يتطور في إدراكه للرمز حتى يتفصل عن المدلول .

وأول ما ينطق به الطفل من كلمات تكون ذات طابع طفولى أى أنها خاصة به ولقدرته على إخراج الحروف وجمعها في كلمة واحدة فنراه ينطق كلمة « ما من » بدلا من « لبن » فمثلا ، « نكبه » بدلا من « كنه » ويزداد منطوقه من الكلمات حتى يصل إلى ٥٠ كلمة قبل سن الثانية وهذه الزيادة تخضع لعدة ملاحظات .

١ - أن الكلمات التي يزداد بها محصول الطفل اللغوى ليس هي تلك التي تتردد كثيراً على لسان الوالدين بقدر ما هي الكلمات التي تتصل بتحقيق رغبة لدى الطفل نفسه أو بتلك الموجودة في بيئته القريبة .

٢ - أن الأشياء التي ينطق أسماءها أولاً هي تلك التي تتضمن حركة كالألعاب التي تصدر أصواتا (كالشخشيخة) أو الحيوانات المتحركة (حصان ، حمامة) .

٣ - إن معدل زيادة الكلمات لا يتصل بمعدل تطور اللغة :

كما أننا نجد نوعين من الكلمات تظهر عن الطفل ولكل وضعها في النمو الكلمات المادية Sucstantive والكلمات الوظيفية Function أما الكلمات المادية وتشمل أسماء الأشياء والأحداث والأفعال الوصفية وهذا النوع يرتبط بالموقف الذي ظهر فيه ومن ثم فإن وجوده رهن بتكراره . والكلمات الوظيفية فهي تعبر عن اتجاهات أو طلبات أو استفسارات (فوق - كان - فين ؟) وطالما ترتبط بوظائف حسية فإن تكرارها ثابت وأكد . ونوع آخر يشمل كلمات الوصف مثل الألوان وهذه كما نعلم مرتبطة بالصفات الثابتة للأشياء بينما يميل الطفل إلى تلك التي تدل على حركة .

ويتطور استخدام الطفل للكلمات مع انتهاء السنة الثانية وبداية مرحلة ما قبل العمليات الفكرية حيث تصبح الكلمة رمزاً ينفصل عن مدلوله ومن ثم يظهر اللعب التخيلي حيث ترتبط الكلمة بوظيفة ما تدل عليه وليس به ذاته فقطعة من الخشب قد تكون سمكه إذا ما وقعت في الماء وقد تكون طائرة إذا ما جعلت في السماء وتكون كوباً إذا ما رفعت لتمثيل الشرب منها . وننتقل من هنا لكي نلقى ضوءاً على الكيفية التي يعطى بها الطفل المعنى للأشياء . (Mcree head & More head 1974)

اكتساب المعنى :

كيف يكتسب الطفل المعنى الخاص بالأشياء ؟ تلك مشكلة حاول العلماء التصدي لها داخل الإطار النظري الذي يمثله . فيرى السلوكيون أن المعنى هو مجموعة من الاستجابات المتوسطة التي يثيرها مثير معين وهذه الاستجابات هي ما يمكن إعطائه للمثير من مواصفات مرتبطة به . بينما يرى الوارثيون من أتباع تشومسكى أننا لدينا جهاز بيولوجي خاص (م ٤ - النمو النفسي)

بالإدراك والتعرف وهو الذى يحدد كيف تفتقل البيئة من مدركات حسية إلى مكونات مجردة للمعنى لها صفة العمومية لكل اللغات وهى ما يطلق عليها بيروسك Bieruisch الأوليات العالمية Universal primitives hypothesis بينما يرى المعرفيون أن الطفل يكتسب معانى الأشياء بالتعرف على الشيء أولاً ككل ثم التعرف على الوظيفة من وظائفه (كالدحرجة بالنسبة للكرة مثلاً) ويضعها فى مركز دائرة المعانى الخاصة به . وهذا، ما يتفق مع بياجيه فى أن وظيفة الأشياء هى التى تجمعها فى مفهوم ثابت وأن هذه الوظيفة لها صفته الدينامية بعكس الصفات الثابتة كالألوان مثلاً .

مراحل نمو اللغة :

سبق أن قلنا أن الكلام مظهر من مظاهر اللغة وليس بديلاً عنها أى أن اللغة تعنى أكثر من الكلام وتبدأ تكوينها قبل ظهور الكلام ومن ثم فإن المراحل الأولى للنمو والتى تسبق المرحلة التى يطلق عليها العلماء المرحلة اللغوية والتى عادة ما تبدأ تباشرها مع سن الواحدة أو الواحدة والنصف تعتبر أساسية فى مراحل لنمو اللغوى باعتبار أن اللغة وسيلة من وسائل الاتصال والتبليغ وإذا ما تتبعنا ظهور الأصوات عند الأطفال لوجدنا أن أول مظهر من مظاهرها هو الصراخ ولقد حاول العلماء أيضاً تحديد أنواعه فبزوا بين صرخة الميلاد وصرخة الجوع وصرخة الألم وصرخة الوحدة أو الخوف ووجدوا أن الصراخ الذى يصدر عن الطفل لا بد وأن يحمل رسالة معينة . كان للطفل أن يعبر عنها لو أن أعضاءه المختصة بالكلام كانت كاملة النضج .

ثم تأتى بعد ذلك مرحلة التقرقرة وهى التى تسبق مرحلة المناغاة فيها يصدر عن الطفل أصوات منتظمة وإنه كانت غير واضحة التقسيمات ويمكن اعتبارها مرحلة تجريب لإصدار أصوات مقبولة حيث أن الطفل

في هذه الحالة لا يحمل قرقرته رسالة كالتى يحملها صراخة وتتحول مرحلة القرقرة إلى مناغاة لتحدد فيها بعض الأصوات التى يمكن أن نميزها وأخرى قد لا نميزها ويرى بعض العلماء أن الطفل فى هذه المرحلة قادر على إصدار أصوات تجمع فيها أصوات اللغات جميعها حيث يبدأ التعزيز الناتج من البيئة المحيطة فى تحديد ما يجب فيها وما لا يجب أو ما يدخل فى حيز لغتنا أو ما لا يدخل .

مرحلة الكلمة الواحدة : Holophrastic speech

تبدأ عندما ينطق الطفل كلمة مفهومة نوعاً ما يجمعها من الأصوات التى تدرّب عليها وصادفت إستحساناً من والديه . ومما هو جديد بالذكر فإن هذه الكلمات المفردة لا تعتبر محاولة من الطفل لإظهار مقدرته على إصدار كلمات بقدر ما هى أساساً تحل محل جمل كاملة فتتضمن طلباً أو تعبر عن شعور أو تسترعى انتباهها أى أنها أصبحت وحدة لغوية كاملة كالجمل عند البالغين سواء بسواء ولا يغيب عن ذهننا أيضاً أن هذه الكلمة المنفردة التى اعتبرناها بديل جملة تعتبر دليلاً على أن الطفل يعرف تماماً ما يريد ولكن قدرته العضوية لا تساعده على نطق الكلمات التى تناسب المقام . وهل يعنى ذلك أن الأطفال يعلمون قواعد اللغة وإن كان الأداء قاصراً على تبيان ذلك؟ فيما يرى تشومسكى ذلك على أساس أننا نولد ولدينا هذه المقدرة فإن بياجيه يرى هذه التعبيرات الأولية على أساس أنها تعبيرات عن أعمال تمثل خطوة فى استخدام الرمز للاختزان فى العقل مثل استخدام صوت الحيوان ليبدل عليه أو حركته سواء بسواء . وأننا لا يمكن أن نفصل بين الكلمة المنطوقة والموقف الذى نطقت فيه .

(Piaget 1951)

مرحلة الكلمتين :

تليق من مرحلة الكلمة الواحدة وتبدأ مع نهاية الثمان عشر شهراً

الأولى عندما يرتفع رصيد الطفل من المفردات اللغوية إلى حوالى ٥٠ كلمة وقد أطلق بعض العلماء على هذه المرحلة مرحلة الكلام البرقى أو التلغرافى (Brown and Fraser 1963) على أساس التقارب بين صيغة هذا الكلام وصيغة البرقيات وإن كان هذا التقارب لا يعنى التطابق بأى حال من الأحوال فرغم أن حروف الجر وأدوات التعريف والربط قد يتم حذفها فإن كلمات هامة أيضا مثل صيغة الأفعال وأزمنتها تختفى من هذه التعبيرات وذلك دليل على أن النمو المعرفى لدى الأطفال لم يكتمل بعد وأن كنا نستطيع أن نفهم البرقية بمعزل عن الموقف الخاص بها فإننا لا يمكن أن نفهم كلام الطفل بمعزل عن الموقف الذى تم فيه .

وقد أقترح برين (Braine 1963) طريقة لتفسير هذه المرحلة على اعتبار أنها نحو محورى Pivot-open grammar عن طريق ملاحظاته لهذه الكلمات وتبين له أن هذه الكلمات تحتوى على نوعين أحدهما محورى Pivot والثانى مفتوح Open حيث يتم تكرار الكلمة المحورية فى أغلب التركيبات اللغوية التى تصدر من الطفل (مثل بابا جبه ، بابا راح ، بابا أكل . فكلمة بابا هنا محورية) ولكل طفل طبعا كلماته التى تعتبر محورية والأخرى التى قد تكون مفتوحة أى أن الكلمة التى قد تعتبر محورية لدى طفل ما قد تعتبر من الكلمات المفتوحة عن طفل آخر وهكذا ولأن براين Braine فشل فى وضع أسس ثابتة لهذا النوع من النحو فقد صادف نقداً كثيراً أذعه ذلك الذى كان على يد بلوم Bloom 1970 عندما لاحظ أن التركيبين المتطابقتين لطفل واحد قد يعنيان معانى مختلفة وقد اقترحت بلوم نمطاً آخر للقواعد الخاصة بهذه التركيبات اللغوية نابغاً من نظرية تشومسكى فلقد أوصلت هذه التركيبات إلى أول السلم عند تشومسكى وهى الإسم والفعل باعتبار أن التعبير اللغوى المكون من كلمتين عند الطفل ما هو إلا مصغر للتركيب العميق للتعبيرات التى ينطق بها الكبار وأنها خطوة للوصول إلى الجملة التامة البسيطة. ثم الحمل

المحورة أى تلك التى تم إحصاعها لتبديلات وتعديلات كالنقى والاستفهام مثلا .

اللغة والتفكير :

علاقة اللغة بالتفكير كانت وما تزال ميدانا لأبحاث كثيرة يقوم بها العلماء فبينما نرى بعضهم يقول بأن اللغة سابقة للتفكير نجد آخرون يقولون بأن التفكير سابق للغة وآخرون لا يفصلون بين الإثنين وآخرو ن يرون تقاربا أو قربانا بين الإثنين .

ووجهة النظر الأولى بأن اللغة تسبق الفكر وتوجهة نابعة من فكرة النسبة الحضارية 1956 Carroll التى نادى بها وورف Whorf تلميذ سابينر Sapir والتى تقول بأن الاختلاف الفكرى الموجود بين حضارة وأخرى نابع من إختلاف اللغات بين هذه الحضارات باعتبار أن اللغة هى وعاء الحضارة وقد توصل إلى ذلك عن طريق الدراسات الأثرى وبولوجية حيث توصل إلى أن كل لغة تحتوى على مفاهيم معينة تحدد طريقة التفكير عندهم هؤلاء المتحدثين بها . بينما يرى بياجيه عكس وورف على أساس أن الفكر جزء من الذكاء الكلى أو صورة من صورته وأنه يبدأ قبل أن تظهر اللغة وأن ذلك يؤدى إلى أن المستوى الفكرى أو المعرفى للطفل هو الذى يحدد الافة التى يستخدمها لا العكس وهكذا نجد إختلافا كيفية بين اللغة التى يتحدث بها الصغار واللغة التى يتحدث بها الكبار وأننا لا يمكن أن نعبر عن مفهوم معين دون أن يأتى تحت سيطرتنا الفكرية . ومن ناحية أخرى فإن الأطفال البكم يتكون لديهم مستوى فكرى يقارب بكثير المستوى الفكرى للأطفال الناطقين مما يدل على أن اللغة هى التى تعبر عن الفكر لا الفكر هو الذى يعبر عن اللغة وأن مالمدى هؤلاء الأطفال هو نقص فى أجهزة الإنتاج اللغوى ولكن الأداء اللغوى قد لا يعبر تعبيرا سليما على المستوى الفكرى فهناك أطفال يصل مستوى لغتهم إلى مستوى الكبار ولكنهم ليسوا فى مستواهم الفكرى ومن هنا جاء الفصل

بين الأداء والكفاءة كما أن عدم تطابق التعبير اللغوي مع القصد الفكرى يصور مشكلة نقص القدرة الإبلاغية للكلام. وقد نادى فايغوتسكى Vygotsky 1962 العالم السوفيتى بأن اللغة والتفكير يسيران جنباً إلى جنباً منذ الميلاد ويتصلان بينهما على هيئة أفعال يقوم بها الصغار ثم ينفصلان فى أطوار النمو حيث تكون اللغة ذات كيان مستقل قد تساعد التفكير وتوجهه وقد تقصر عن ذلك ومن هنا نشأ دور اللغة التوجيهى وإن كان ذلك لا يعنى أن التفكير تابعاً لها مثلما رأى عند « وورف » فهى للفكر مثل الرموز للعلم لا يمكن الاستغناء عنها ولكنها لا تخلقه وإنما هى أدواته .

النمو الاخلاقى

من خلال التنشئة الاجتماعية والعلاقات المكونة على أدوات التطبيع الاجتماعى أثناء النمو يصادف الفرد البشرى قوانين موضوعة تحكم العلاقات بين أعضاء هذا المجتمع وتقيم نظامه . وهذه القوانين التى يتم بها اكتسابها هو محور هذا الفصل .

ومثلما الحالة مع كل العلاقات الاجتماعية والظروف التى تحيط بأنماط التفاعل يكتسب الفرد المبادئ الأخلاقية وفى الأساس فإن معرفته وقدرته على التصرف بطريقة أخلاقية تمثل إرادة – وسيطرة على سلوكه من خلال عوامل خارجية . وعلى مر الزمن يبدأ الطفل فى قبول هذه القواعد من خلال استدخالها حتى ترتبط بسلوكه ارتباطاً وثيقاً وتلك عملية معقدة ذو أوجه عدة . فالاطفال بادئاً ذى بدىء ليسوا بأخلاقين وليسوا بلا أخلاقين أى أنهم يوجدوا فى هذا المجتمع فى حالة حياد تام مع هذه القوانين ومن خلال وجودهم فى مجتمع ما يبدأون فى اكتساب قوانينه عن طريق عضويتهم منهم فيه وتفحصهم لدورهم فيه . ومع ذلك فلا يمكننا أن نعزو القدرة على